ديكارت وعصره

نبدأ دراستنا بتحديد مركز ديكارت فى الفكر الفرنسى وذلك بمقارنته بمظاهر التفكير اللاحقة له وبمظاهره السابقة . ولعلنا نجد فى دراستنا لپسكال[1] معاصر ديكارت الأصغر مادة طريفة لهذه المقارنة .

ولد رينيه ديكارت René Descartes فى عام ١٥٩٦ وتوفى فى عام ١٦٥٠ . فامتدت حياته أثناء حكمى هنرى الرابع ولويس الثالث عشر ملكى فرنسا ، ثم بعد وفاة الأخير حتى أوائل عصر الفروند La Fronde ووزارة مزاران . أما بليز پسكال (١٦٢٣ — ١٦٦١) فقد ابتدأت حياته الفكرية فى نهاية حكم لويس الثالث عشر ، وامتدت أثناء وزارة ما زارن وسنوات حرب الفروند . وكانت هذه سنواتِ ثورةٍ وقلق فى فرنسا ، تركت أثرها فى تأليف پسكال وتفكيره .

وقد رأينا عند پسكال نوعا من التوتر والقلق لا نجدهما عند ديكارت . وكان لهذا التوتر أثر فى الفكر الفرنسى غير الأثر الذى تركه ديكارت . وقد أيقظ پسكال فى نفوس المفكرين روح الثورة على الأوضاع والتقاليد السياسية والأدبية والدينية أيضاً .

أما تفكير ديكارت وتأليفه ، فقد اتفقا وزمنَ عظمةٍ فى فرنسا وشيئاً من من الاستقرار . بل كان هذا التفكير والتأليف من أسباب تلك العظمة وذلك الاستقرار . وتقع تبعة أعداد وتأسيس العصر الكلاسى كله على عاتق ديكارت . فهو الذى أشاع النظام فى الأدب والفكر الفلسفى الفرنسى وفى الفكر السياسى أو فى بعض نواحيه على الأقل .

---

(١) راجع كتابنا پسكال (فى مجموعة نوابغ الفكر الغربى : دار المعارف ١٩٥٦) وخاصة من ١١ — ٢٧ .

(٢) وهو الذى يبدأ عند اعتلاء لويس الرابع عشر عرش فرنسا (١٦٦٠) ويستمر على الأقل حتى أواسط القرن الثامن عشر .

أما پسكال ، فقد كان موقفه غريباً ، بين عصر ابتكار وتأسيس ، وعصر إنشاء وتنظيم . ولا شك فى أن حركات الابتكار والتأسيس التى امتاز بها عصر ديكارت وكورنى Corneille فى الفلسفة والأدب ، أدت إلى اتخاذ الأسلوب الكلاسى فى مظاهره المختلفة . وكأن پسكال قد فصل فى الفكر الفرنسى بين فترة التأسيس المذكورة وفترة التشييد والتنظيم ، وكأن عملية التفتيت فى الأسلوب الفرنسى وفى الروح النظامية الفرنسية ، ابتدأت عند پسكال وقبل قيام العصر الكلاسى بالمعنى الدقيق .

جاء ديكارت بعد عدة تيارات فكرية عنيفة قامت فى أوربا منذ ابتداء القرن السادس عشر ، وجاءت فلسفة ديكارت فحولت تلك التيارات تحويلاً جوهرياً .

والقرن السادس عشر عصر النهضة والإحياء والإصلاح ، فهو عصر التجديد. ولن ينتهى التجديد ، ولن يصبح الجديد حديثاً ، إلا على يد رجال من أمثال ديكارت .

ومحاولات عصر النهضة ومغامراته كثيرة متنوعة ، لنذكر منها بايجاز ، ما كان مرتبطاً بالدين والعلم والفلسفة والفن ، ولنذكر بوجه خاص رد فعل ديكارت عليها .

وقد أشرنا فى كتابنا عن پسكال[1] إلى أساس الدعوة البروتستانتية فى الدين : نقصد القضاء على جميع الوسطاء بين الإنسان والله ، بين الأنا والله ، والتقرير بأن الإنسان فريد وحيد ، أمام إله العزة والكمال . وقد أدى هذا التقرير إلى شىء من الذعر والقلق أصاب النفوس .

وأغرب الأمر عند رجل مثل ديكارت أنه هو أيضاً يستغنى فى الفلسفة عن الوسطاء بين النفس والحقيقة المطلقة ، وأنه مع ذلك يحاول التقرب إلى الله فى طمأنينة العقل التامة . وديكارت فى تحويله الفلسفى لحركة الإصلاح الدينى

---

(١) انظر پسكال ٦٤ – ٦٦

من الذعر إلى الطمائنينة ، قد ساهم بدوره وفى وقته ، فى حركة الرد الكاثوليكى على هذا الإصلاح ، آى فى حركة الإصلاح الكاثوليكى ، التى ابتدأت عشرات من السنين قبله . وقد أشرنا فى كتابنا المذكور[1] إلى مختلف التيارات فى ذلك الإصلاح الثانى ، تلك التيارات التى انتهت عند رجال پور روايال Port-Royal وعند پسكال نفسه ، بثورة على الكنيسة الكاثوليكية وعلى اليسوعيين بنوع خاص ، أى على هؤلاء الذين ابتدأت عندهم حركة الاصلاح الكاثوليكى .

وديكارت كاثوليكى لم يحد مرة فى حياته عن مبادئ الكنيسة . وديكارت تلميذ اليسوعيين . واليسوعيون جماعة دينية تأسست فى القرن السادس عشر على يد القديس اغناطيوس اللوايولى الأسبانى (١٤٩١ — ١٥٥٦) ، قاموا بدور خطير فى مقاومة الإصلاح البروتستانتى ، هادفين إلى تجديد الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك عن طريق ارشاد وتوجيه المؤمنين من الحكام والقواد ، توجيها عمليًّا سياسيًّا بوجه عام ، وعن طريق تربية أولادهم وتثقيفهم بوجه خاص . ولهذا الغرض عملوا منذ تأسيس جماعتهم على إنشاء المدارس والجامعات فى مختلف أنحاء أوربا وخاصة فى ألمانيا وبلچيكا وفرنسا.[2] ولا شك فى أن اليسوعيين قد ساهموا بتربيتهم هذه فى تلك الطمأنينة التى تمتع بها ديكارت ، وفى جو الثقة الذى عاش فيه . — وهدفا التربية اليسوعية هما تدعيم الإرادة من ناحية ، وتجنيب العقل البحثَ فى الأصول الدينية من ناحية أخرى . ويتحقق ذلك ، بتوجيه النفس نحو الطاعة لرؤساء الكنيسة وأحكامها . ولتلك التربية أساس فلسفى دينى مزدوج ، قرره القديس أغناطيوس نفسه : فمن ناحية « الإنسان مخلوق homo creatus est » ، خُلقَ لتمجيد الله وخدمته ، لا للبحث فى أسرار الدين ، ولا لمحاولة فهم ما كان مغلقا عليه فى هذه الحياة ؛

---

(١) انظر پسكال ٦١ — ١١٤

(٢) راجع كتاب رولان مونييه فى القرنين السادس والسابع عشر ٨٩ — ٩١ (باريس ١٩٥٤
Roland Mousnier : *XVI 'et XVII' Siècles*, Paris 1954.

والإنسان من ناحية أخرى ، حر فى إرادته ، وعليه وحده تقع تبعة عمله . ولذلك كان قادراً على إظهار حبه لله ، بالعمل والخدمة ، لا بالتأمل العقلى والخوض الصوفى . وكان القديس لا يطلب فى صلواته إلى الله « أن يشرفه بزيارات خاصة » إنما كان يتوسل إليه أن يكلفه بالخدمة قبل أى شىء آخر ، ففى هذا ما يتفق وطبيعة المخلوق[١] .

وقد اعتمد اليسوعيون على هذا التوجيه فى محاربة روح التمرد والعصيان التى نشأت عن تعاليم المصلحين البروتستانت والتى تمثلت بنوع خاص فى محاولة القضاء على الوسطاء بين الله والناس ، وعلى الكنيسة بالتالى ، والتى انتهت بانفراد الإنسان وانفصاله عن الله . وطبيعى أن يعمل الكاثوليك على إرجاع الطمأنينة فى النفس بتقوية الإرادة ، وبتعويد الإنسان الخضوع لتعاليم الكنيسة حتى إن لم يفهم تلك التعاليم . وسنرى لتوجيه اليسوعيين أثراً عظيماً لا فى حياة ديكارت فحسب بل فى تفكيره وفلسفته أيضاً .

أما فى الميدان العلمى ، فالمحاولات والمغامرات ، ابتدأت أثناء القرن الخامس عشر ، وبلغت ذروتها عند جاليليو معاصر ديكارت . وهى على أنواع ثلاثة : أولها ، مغامرات الرحالة والجغرافيين ، الذين اكتشفوا فى الأرض مناطق وشعوباً وحاجيات لم تكن معروفة من قبل . والثانى اكتشافات علم الفلك : منها ما يتعلق بمسار الأفلاك وخطوط حركاتها ، كإحلال المحدثين الحركة الأهليجية محل الحركة الدائرية المعروفة عند الأقدمين . ومن اكتشافات هذا العلم ، ما يتعلق بالمسافات الهائلة بين الأفلاك ، أو بينها وبين الشمس ، أو بينها وبين الأرض — . كل هذا قد تم بفضل جرأة لم يبلغها الأقدمون فى العلوم الرياضية ، وبفضل آلات لم يعرفوها .

والنوع الثالث من المحاولات العلمية مرتبط بتجديد منهج العلم وروحه بوجه عام . وقد ابتدأت البحوث المنهجية والمنطقية أثناء القرن السادس عشر عند راموس Ramus الذى انتقد منطق أرسطو ومهد كما سنرى لانتقاد ديكارت

---

(١) راجع ألكييه فى كتابه « الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان عند ديكارت » باريس ١٩٥٠ ٣٦ — ٣٩

أعظم التمهيد . ثم أستمرت تلك البحوث عند فرنسيس بيكون صاحب « الأرجانون الجديد » . وإن كان عيب بيكون أنه لم يصل إلى اكتشاف علمي جديد فقد عمل للعلم الطبيعي التجريبي أعظم دعاية يمكن عملها ، وشجع بتلك الدعاية العلماء الإنجليز فيما بعد، على اتخاذ التجربة عماداً لبحوثهم . — إلا أن أعظم وأخصب مظاهر المهج قبل ديكارت موجودة عند معاصرة جاليليو . فهو قد اعتمد على الرياضة فى وضع الفرض العلمى والبرهنة عليه ، واتجه إلى اعتبار الحركة النقلية ، وهى أقرب الحركات إلى التعبير الرياضى ، أساس التغير فى العالم الطبيعى كله . واتجه من هذا الاعتبار الأخير ، إلى المذهب الآلى فى العلم ، واتخذ الطريق بذلك إلى الفلسفة الميكانيكية التى ستكون فلسفة ديكارت . وفى نفس الوقت الذى اتجه فيه جاليليو إلى التفسير الآلى فى الطبيعة ، كان الطبيب البريطانى وليم هارفى يقوم بدراسة الأوعية الدموية ، وانتهى إلى مبدأ دوران الدم ، ذلك المبدأ الذى بنى ديكارت عليه قراره فى أن الجسم الإنسانى ، كجميع أجسام الحيوانات ، ذو تركيب ميكانيكى وأنه شبيه بالأجسام التى تركبها صناعتنا(١) .

هذا شىء من الاكتشافات العلمية السابقة على ديكارت والتى استوعبها ديكارت فى علمه ، دون أن يغير فيها شيئا يذكر ، سوى أنه وضعها فى كيان واحد ، وربطها بالمنهج الواضح الذى اختطه للبحث العلمى ، وأنه عمل على تأسيسها تأسيسا فلسفيًّا .

أما الميدان الفلسفى فقد اتخذت المغامرات فيه اتجاهين قد يبدو لأول وهلة تعارضهما : الأول اتجاه الشك الذى اتخذه مونتينى Montaigne ، ومن ورائه ديكارت وبسكال . وكان هذا الاتجاه شائعاً بين فرنسا وإيطاليا وأسبانيا

---

(١) راجع كتاب رولان مونييه فى القرنين السادس والسابع عشر *XVI^e et XVII^e Siècles* ص ١٩١ — ١٩٥ .

فى وقت واحد . — والشك شعور الإنسان بعجزه ، راجع لا إلى الأغلاط التى يقع فيها الحس أو العقل ، كما كان شك اليونانيين القدماء ، إنما إلى تمرد على السلطات بوجه عام ، وعلى الكنيسة بوجه خاص ، وإلى ما يؤدى إليه هذا التمرد من انفراد وعزلة . ولكن الشك راجع أيضاً إلى اكتشافات الرحالة والجغرافيين والعلماء لمعالم فى الأرض كانت مجهولة ، ولمعالم أخرى فى الكون أدى التنبه إليها إلى شعور الإنسان بصغره وحقارته أمام العالم . — أما الاتجاه الثانى فهو ذلك الذى اتخذه بعض فلاسفة إيطاليا فى القرن السادس عشر وحاولوا فيه تجديد التراث اليونانى القديم بوجه عام ، وتراث الأفلاطونيين المحدثين بوجه خاص . ومعروف أن هذه المحاولة الفلسفية لم تُجْدِ نفعاً لأنها كانت خصبة فى ظاهرها ، عقيمة فى حقيقتها . وكانت عقيمة لأنها لم تعمل للعلم ولا كتشافاته الأخيرة حساباً : فرجال أمثال چيوردانو برونو Giordano Bruno الذى أُحرقَ فى روما ، وتوماس كامپانيلا Campanella ، الذى سُجنَ فى إيطاليا وتوفى منفيًّا فى فرنسا ، هؤلاء الرجال الذين دعوا إلى الرجوع إلى بعض مواقف مدرسة الإسكندرية الأفلاطونية ، من سريان القوة الحية فى العالم المادى ، ومن وحدة للوجود تقضى على التمييز بين الخالق والمخلوق ، إن هؤلاء الرجال قد تجاهلوا العلم الحديث ، ووقفوا عند نتائج الفلسفة اليونانية القديمة .

نقول إنه مهما قام من تعارض بين هؤلاء الفلاسفة والشكاك فى المبادئ ، فالمغامرة الفلسفية من نوع واحد : كلا الفلسفتين الشكية والأفلاطونية تعادى العقل ، وتنادى بملكات أخرى غيره كالبصيرة السحرية عند كامپانيلا ، والغريزة الحيوانية عند مونتينى ، والإيمان الصوفى عند شارون Charron .

إلا أن شك رجال القرن السادس عشر شك مغالين مسرفين ، كما أن ادعاءات أفلاطونى عصر النهضة مظاهر قوة وطموح هائل . بل إن محاولات البروتستانت فى الدين وما أدت إليه من خوف وقلق ، ومغامرات العلماء وما أدت إليه من شك فى الفلسفة ، ومغامرات برونو وكامپانيلا ، كل هذا

مظهر لعصر النهضة ، لعصر الأحياء الذى كان حقًّا عصر حياة متدفقة مسرفة فى التدفق ، لا تعرف قانوناً ولا تتبع قاعدة . فالنتائج السلبية والهدامة التى قد أدت إليها تلك المغامرات لم تكن على الإطلاق مظاهر ضعف أو فقر . بل لم تكن مواقف هؤلاء الشكاك مشابهةً لمواقف شكاك القرن الثامن عشر أمثال هيوم Hume ،لم تكن مظاهرَ ارتياب وتساؤل مستمرين . إنما كانت هى أيضاً مظاهرَ حياة وقوة وعنفٍ . وحروب القرن السادس عشر المستمرة ، وحرب الثلاثين عاما فى القرن السابع عشر ، تلك الحروب كلها ، دليل ملموس على ذلك الإسراف فى القوة ، والتبذير فى الحياة ، وعلى إهمال فضائل العقل المتواضعة من تدبير ونظام .

وإن لم يكن مجالُنا موضعَ الكلام عن المظهر السياسى للإسراف والتبذير ، فهناك مجال لا بد من الإشارة إليه ، ويظهر بمناسبته معنى العبقرية الديكارتية : نقصد مجال الفن .

ويجمع المؤرخون على أن الفن الأوربى فى هذا العصر هو المعروف بالفن الغريب أو بالباروك Le Baroque . وهو فن يمتاز بأن وحدة الإلهام وقدرة الفنان على التنسيق والتنظيم فيه ، لا تظهران بقدر ما يظهر فيه تنوع ذلك الإلهام وغناه ، وتنوع تعبيراته واختلافها بينها ، إلى حد التناقض . ومن مظاهره معمار كنائس إيطاليا ، وما ماثلها من كنائس فرنسا فى ذلك الوقت أو منازل بلچيكا وهولندا . ويمتاز هذا المعمار بالتعقد ، سواء كان فى الواجهات التى فقدت وحدتها وانسجامها ، أو فى الأعمدة التى أصبحت ملتوية التواءً حلزونيًّا ، أو فى القباب التى تعقدت أشد التعقد . ويظهر هذا بنوع خاص فيما تحمله أجزاء البناء هذه من زينة وزخرفة ، وفى التماثيل التى تغطى الجدران فى الخارج والداخل . فالزخرفة متنوعة فى التفاصيل ، والتماثيل ذاتها متطرفة فى التعبير عن تفاصيل الجسم الذى تمثله [١].

---

(١) راجع فى هذا كتاب مونييه المذكور ١٧٦ — ١٧٧ .

وأوحات المصورين وخاصة فى بلچيكا وهولندا هى أروع ما يظهر فيه طابع الباروك هذا وخاصة لوحات روبانس Rubens التى تمتاز بالقوة والتدفق الحيوى والإسراف والتنوع ، سواء كان ذلك فى تصوير الجسم الإنسانى أو فى اختيار مناظر الطبيعة أو فى الألوان ذاتها . فالمرأة فى لوحات روبانس من النوع الفلمنكى الضخم ، وكأنها تشارك فى ضخامتها وقوتها وحيويتها الطبيعة كلها . وأوحاته فى حياة المسيح وخاصة فى آلامه وصلبه ، تمتاز بالطابع الكونى هذا : فهى لا تعبر عن أحداث تاريخية مؤثرة إنما عن معان عالمية كونية خارقة . والضوء فى اللوحة يجرى سيالا كأنه تيار الحياة العالمية ذاتها[1].

وربما وجب لفهم هذا وافهم علاقته بفيلسوفنا أن نقارن بين ما نقوله عن لوحات روبانس وبين لوحة لفرانز هالس Franz Hals الهولندى تمثل ديكارت . ولوحة هالس لديكارت مهما كان من قيمتها الفنية تصور عبقرية الفيلسوف : فيها قوة جسم ، وشكيمة أرادة ، وكبرياء نفس . إلا أنها تمتاز قبل أى شىء آخر باتجاه الرأس ، ونظرة العينين بنوع خاص . إنها تظهر وحدة عقلية حاكمة ضابطة لكل ما فى الإنسان من حيوية وقوة ونزعات .

وما يظهر لنا فى تلك اللوحة رمز واضح على المقارنة التى نشير إليها ، بين ديكارت ، وبين العصر الأوروبى الذى نشأ فيه والعصر السابق عليه مباشرة . يمتاز هذان العصران بالتدفق الحيوى والإسراف والتبذير وتعتمد حضارتهما على قوى إنسانية لا نصيب كبير للعقل فيها . أما ديكارت فإن لم تنقصه القوة والحيوية إلا أن جميع مظاهرهما عنده خاضعة لعقل مدبر وإرادة حاكمة .

---

(١) مونييه ١٧٧ – ١٧٨ .